أزمة الضمير عند برنارد لويس

بقلم : المؤرخ المصرى
أ.د. رءوف عباس
آداب القاهرة

(٢ من ٢)

ولنعد إلى الإطار الذى وضع فيه لويس الإسلام ، باعتباره ديناً عدوانياً ، لا يقبل التعايش مع الآخرين ، وأن رسوله كان قيصراً وخلفاءه «خلفاء الله» وظله على الأرض . وقد اخترنا عمل المستشرق البريطانى مونتجمرى واط *Montgomery Watt* الذى يحمل عنوان «الفكر السياسى الإسلامى – المفاهيم الأساسية» *The Basic Concepts - Islamic Political Thought,* ، الصادر عن جامعة أدنبره ، ١٩٦٨ . ويرجع اختيارنا له إلى أن صاحبه يعد حجة – بحق – فى تاريخ الإسلام وثقافته ، ويحتل مكاناً مرموقاً فى حقل الاستشراق ، ولكنه لم ينل من الشهرة ما ناله برنارد لويس ، لأن الحقيقة العلمية ضالته ، بينما خدمة الصهيونية وأهدافها ضالة لويس ، وشتان ما بين الرجلين .

لا يدرس واط الإسلام بمعزل عن المجتمع الذى نبت فيه ، والمجتمعات التى انضوت تحت لواء دولة الإسلام الواحدة أو دوله ودويلاته المتعددة ، واضعاً فى اعتباره واقع تلك المجتمعات ، وموروثها الثقافى ، وما له من أثر فى صياغة الفكر السياسى ، ملفتاً النظر إلى أن القرآن والسنة لا يشيران إلى «النظام السياسى» الذى يجب أن تقام على أساسه «دولة الإسلام» ، وأن ذلك تُرك لاجتهاد المسلمين ، باعتباره من «أمور الدنيا» ، ومن ثم جاء النظام السياسى معبراً عن واقع المجتمع ، متغيراً بتغيره ، وتغير مواقع وأوزان جماعات المصالح فيه ، وصاغ مفاهيمه المختلفة فقهاء من مختلف العصور ، اجتهاداً منهم – وفق قواعد الاجتهاد – فيما لم يرد فيه نص قرآنى أو حديث صحيح . فليس صحيحاً أن «الشريعة» المنزّلة تناولت شيئاً من هذا ، ولكن كل ما جاء بأعمال الفقهاء من شروط السلطة وشرعيتها وواجبات الحاكم وحقوق وواجبات المحكومين ، وكيفية التخلص من الحكم الفاسد ، من اجتهاد فقهاء تغيرت وتعددت وجهات نظرهم بتغير الأحوال وتعاقب العصور ، وما تناولوه ، فى هذا الصدد – يعبر عن إجماع أهل الرأى فى عصر محدد على إضفاء الشرعية على الأعراف المتعارف عليها . وهكذا جاء الفكر السياسى الإسلامى معبراً عن إبداع فقهاء المسلمين .

ويقدم واط فى الفصل الأول من كتابه ما يدحض افتراءات لويس حول النبى القيصر ، وطرد اليهود والنصارى من جزيرة العرب . عندما أشار واط إلى النظام الذى وضعه الرسول الكريم لحكم المدينة ، فاختار له عنوان : «دستور المدينة» ، وحدد أهم ما جاء به على النحو التالى :

١ – يشكل المؤمنون وموالوهم «أمة» واحدة .

٢ – تتحمل كل قبيلة الديّة أو الفدية الواجبة على من ينتسبون إليها .

٣ – على أفراد الأمة أن يتضامنوا تضامناً تاماً فى محاربة الجريمة حتى لو كان مرتكبها من ذوى القربى ، ما دامت موجهة ضد أحد أفراد الأمة .

٤ – يتعاون أفراد الأمة تعاوناً تاماً ضد الكفار فى السلم والحرب ، وفى منح حق الإجارة لمن يطلبها .

٥ – اليهود على اختلاف طوائفهم ينتمون إلى الأمة ، ولهم الاحتفاظ بدينهم ، وعليهم أن يقدموا العون للمسلمين ، وكذلك يلتزم المسلمون بتقديم العون لهم فى السلم والحرب .

وقد رد واط هذه النصوص إلى أصولها فى مجتمع الجزيرة قبل الإسلام ، فهذه الشروط تتفق تماماً مع صيغة «الحلف» التى كانت تبرمها القبائل العربية لمواجهة عدو مشترك تعبيراً عن العرف السائد فى الجزيرة العربية عندئذ . وتتضمّن «الدستور» تحديداً لوضع اليهود فى إطار «الأمة» الواحدة ، فلم يهمشهم أو يستبعدهم . ولم يقع الصدام معهم إلا عندما نقضوا العهد ، وتعاونوا مع قريش ضد المسلمين . ومع ذلك ليس هناك دليل واحد على طردهم من الجزيرة العربية هم ونصارى نجران ، فمع اتساع حجم الدولة الإسلامية – بعد حركة الفتوح – ضرب هؤلاء فى الأرض يلتمسون سبلاً أفضل لكسب العيش مما كان متاحاً فى الجزيرة العربية وظل لهم وجود فى اليمن وأطراف الجزيرة العربية .

وبعد فتح مكة ، وانضمام قبائل الجزيرة إلى الرسول الكريم ، كان ذلك فى إطار الصيغة السياسية التى عرفها العرب ، وهى صيغة «الحلف» الذى يرأسه الرسول ، فلم تكن صيغة «الحكومة» المركزية معروفة عند عرب الجزيرة . ولما كان العرب بدواً يشكل الغزو جانباً من مصادر عيشهم ، فقد استفاد الرسول من ذلك فى توجيههم إلى توسيع مجال الإسلام بضم بقاع جديدة تحت لوائه ، وهو الاتجاه الذى تدعم فى زمن الخلفاء الراشدين ، فكانت حركة الفتوح الكبرى التى صفت الوجود البيزنطى فى الشام ومصر ، وأسقطت إمبراطورية فارس .

ويدحض واط مقولة انتشار الإسلام بحد السيف ، أو فرض الإسلام قسراً على شعوب البلاد التى دخلت تحت لواء الإسلام ، مؤكداً على التمييز فى المعاملة بين البلاد التى فُتحت عنوة وتلك التى فُتحت صلحاً ، وعلى وضع أهل الذمة الذين كفل لهم عهد الذمة الحماية والأمان ، ويبين كيف قامت الإدارة على كواهل أهل الذمة ، وتبنى الفاتحين العرب للنظم الإدارية التى كانت سائدة عند الفرس والروم ، وأشار إلى مشاركة القبائل النصرانية العربية فى فتوح الشام وأرض الجزيرة فى العراق ، واللجوء إلى الأقباط (المصريين) والشوام المسيحيين فى الأسطول الإسلامى أيام الأمويين .

فلم يكن الإسلام عدوانياً ، ولم يكن نبى الإسلام قيصراً ، ولم ينف الحكم الإسلامى وجود غير المسلمين ، طالما كانوا من أهل الكتاب الذين يؤمنون بوحدانية الله ، بل عندما امتدّ الإسلام شرقاً ليضم الزرادشت

والبوذيين ، اعتبرهم من أهل الكتاب ، ومدّ إليهم عهد الذمة ، وتأثرت الثقافة الإسلامية بالموروث الثقافي للأقطار التي ضمتها الدولة الإسلامية ، فكانت تلك التعددية العبقرية التي اتسمت بها الثقافة الإسلامية في مختلف المجالات .

ويضع واط «الخلافة» في إطارها الصحيح ، فبين كيف واجه الصحابة مشكلة قيادة «الأمة عند موت الرسول» دون أن يكون لديهم من الكتاب والسنة ما يدلهم على كيفية التصرف ، فكانت فكرة «الخلافة» التي اهتدت إليها نخبة الصحابة ، لتكون خلافة للرسول في رئاسة «الجماعة» و «إقامة» الصلاة وليست خلافة للنبوة ، فقد كان محمد خاتم النبيين . واهتدى الخلفاء في إدارة «شئون الدولة» الإسلامية الوليدة بالكتاب والسنة ، وذلك في إطار مبدأ «المصلحة» الذي جعل الخليفة عمر بن الخطاب يخرج الأرض الزراعية من الغنائم التي يجب توزيع أربعة أخماسها على المجاهدين ، وجعله يبطل حد السرقة عند وقوع المجاعة ، وجعل أبا بكر يحارب من امتنعوا عن دفع الزكاة حفاظاً على تماسك «الدولة» الوليدة . وتولى الخلفاء الراشدون الأمر من خلال «البيعة» التي كانت بدورها من التقاليد العربية السابقة على الإسلام . ولذلك انزعج المعارضون للخليفة عثمان بن عفان عندما رد على طلبهم له بالتنحي عن الخلافة بقوله : «كيف أخلع قميصاً ألبسنيه الله» فعدوا موقفه هذا مخالفاً للشرع ، واغتالوه .

وحتى عندما تحولت «الخلافة» إلى ملك عضود على يد معاوية بن أبي سفيان ، لم يدّع أحد من خلفاء بني أمية أن سلطته مفوّضة إليه من الله ، بل كان الاختيار يتم – أيضاً – بالبيعة . وكان العباسيون هم أول من استندوا إلى «الإرادة الإلهية» في توليهم السلطة . ولم تظهر فكرة «التفويض الإلهي» إلا على يد دعاة الفاطميين ، وقال بها بعض العباسيين في خضم الصراع حول شرعية الحكم بينهم وبين الفاطميين ، مع ملاحظة أن أوروبا في ذلك العصر كانت تسودها فكرة «الحق الإلهي» للملوك ، وظلت كذلك حتى القرن السادس عشر على أقل تقدير .

ولم يعد للخلافة وزن سياسي كبير بعد سيطرة العسكر على زمام الأمور في الدولة العباسية ، وظهور منصب «أمير الأمراء» ثم «السلطان» لتتحول «الخلافة» إلى مجرد رمز للدولة ، ومصدر لإضفاء الشرعية على الحكم القائم عن طريق «تفويض» الخليفة السلطة للسلطان . ولذلك لم يحفل العثمانيون كثيراً بلقب «الخلافة» قبل السلطان عبد الحميد الثاني الذي حكم في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين ، وجاء استخدامه له في إطار تبنيه لفكرة الجامعة الإسلامية كأداة سياسية لمقاومة السيطرة الأجنبية على ولايات الدولة العثمانية .

وعندما ألغى مصطفى كمال أتاتورك «الخلافة » عام ١٩٢٤ لم ينشأ فراغ حقيقي عن هذا الإلغاء لأن المنصب كان قد فقد وزنه ومغزاه ، وكانت دوافع المنادين بإحياء الخلافة – في الأغلب والأعم – شخصية محضة . ومن هذا القبيل دعوة بعض المنظمات الإسلامية المتطرفة من أمثال «القاعدة» وزعيمها أسامة بن لادن – الذي نصبه برنارد لويس متحدثاً بلسان جميع المسلمين ! .

ويشكل «الجهاد» المحور الأساسي في كتاب لويس «أزمة الإسلام» ، واختار له كلمة *Holy War* (الحرب المقدسة) التي تخدم فكرة عدوانية الإسلام التي يروج لها برنارد لويس . ولكن المستشرقين العدول من أمثال واط ، وجون إسبوسيتو *John Esposito* صاحب كتاب «التهديد الإسلامي ، أسطورة أم حقيقة» ، *The Islamic Threat Myth or Reality* وهو أستاذ بجامعة جورجتاون ، ورجل دين كاثوليكي ، ومدير مركز التفاهم الإسلامي المسيحي بواشنطن . هذان المستشرقان (وغيرهما) يشرحان لقرائهما «الجهاد» بمفهومه الواسع . فالجهاد – لغة – يعني بذل أقصى الجهد ، وهو ينطوي على معانٍ عدة : من بذل أقصى الجهد لكسب العيش ، وطلب العلم ، والسلوك القويم في الحياة ، ونشر الإسلام عن طريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والسمو بالنفس عن النزوات والخطايا ، إلى مقاومة كل منكر باليد أو اللسان أو حتى القلب (الضمير) ، طالما أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، أما الجهاد بالسيف (القتال) ، فللدفاع عن الوطن والمال والعرض ، ولتوسيع رقعة الإسلام . ويذهب كل من واط وإسبوسيتو إلى أن مفهوم «الحرب المقدسة» لا يعبّر عن «الجهاد» تعبيراً دقيقاً ، وأن استخدامه من جانب بعض المستشرقين جاء مغرضاً ، لأن الأقاليم الكبيرة التي كسبها الإسلام كان لجهاد الدعوة على يد المتصوفة والتجار اليد الطولى في تحقيقه من الصين وجنوب الفلبين شرقاً حتى جنوب شرقي آسيا غرباً ، ومن وسط آسيا شمالاً حتى الهند جنوباً ، والكثير من هذه البلاد لم تطأه قدم جندي مسلم .

ومن مات مجاهداً في سبيل الله أو مدافعاً عن وطنه أو ماله أو عرضه فهو شهيد ، ومفهوم الجهاد في سبيل الله لا يقتصر على الحرب وحدها ولكنه أعم من ذلك وأشمل .

ويبني برنارد لويس على مفهومه للجهاد – باعتباره عدواناً مسلحاً على كل من يعتنق ديناً غير الإسلام – الطريقة التي قدم بها لقرائه مصطلح «دار الإسلام» و «دار الحرب» ، فيدخل في روع قارئه أن المسلمين يسعون دائماً إلى أسلمة العالم كله بالقوة ، وهو بذلك يضرب على أكثر من وتر حساس . فهو يستعدي الغرب على من يهدده ويبرر ما تفعله إسرائيل بالعرب باعتباره حق دفاع شرعياً عن النفس ، ويثير مخاوف بلاد الغرب (أوروبا وأمريكا) من الجاليات الإسلامية التي ازدادت عدداً أملاً في أن يؤدي ذلك إلى دعم القوى العنصرية المطالبة بطردهم . ويعكس ذلك براعة لويس في تجسيد ما هو نظري ليصبح واقعاً ومعيشاً ، طالما كان يخدم الخط السياسي الذي ينشر كتبه دعماً له . بينما نجد مونتجمري واط يضع المصطلح في إطاره الفقهي المحض . فالإسلام يحرم الاقتتال بين المسلمين بعضهم البعض ومن ثم عد بلادهم «دار الإسلام» بينما أجاز لهم قتال غير المسلمين رداً لعدوانهم أو دفاعاً عن مصالح دار الإسلام . ورغم ذلك دارت معظم حروب المسلمين داخل دار الإسلام صراعاً على السلطة أو توسيعاً لرقعة الدول الإسلامية المستقلة على حساب جيرانها ، وأراق المسلمون دماء بعضهم البعض منذ الفتنة الكبرى حتى سقوط الأندلس أكثر مما أراقوا من دماء غير المسلمين من سكان «دار الحرب» . ولم يكن للدين دور في تلك الصراعات ، بل كان بريئاً منها .

ويذهب لويس إلى أن الإسلام والمسيحية دينان لا يطيقان النقاش معاً ، وأنهما في صدام دائم لأنهما على نقيض اليهودية لا ينتسب كل منهما إلى عنصر معين ، ويتجه إلى نشر دعواه في العالم كله ، ومن ثم تتقاطع طرقهما ويتفجر الصراع بينهما ، حدث هذا في صدر الإسلام مع الدولة البيزنطية ثم تآكلت تلك الدولة أمام الزحف الإسلامي حتى قضى عليها العثمانيون ، وكما حدث ذلك في شبه جزيرة أيبريا (الأندلس) . وجاء رد الفعل من جانب المسيحيين ممثلاً في الحروب الصليبية ثم الزحف الاستعماري الأوروبي .

كانت هذه الفكرة موضوع مقال نشره لويس في مجلة *The Atlantic Monthly*

عدد مايو ٢٠٠٣ بعنوان استفزازى «أنا على حق ، وأنت على باطل ، فلتذهب إلى الجحيم » ، وهو المقال الذى ترددت بعض مقولاته فى كتابه الحالى «أزمة الإسلام» ، والتى يذهب فيها إلى أن عداء المسلمين للغرب مكون من مكوناتهم «الجينية» ، وشعورهم بالمهانة تجاه الغرب المسيحى يعود إلى ذلك الثأر القديم ، وما أصاب المسلمين من تخلف حضارى ، بينما تقدم الغرب (المسيحى) ، وفرض هيمنته عليهم ، وهم لا يملكون سبيلاً للنيل من الغرب إلا تدميره على نحو ما فعله تنظيم «القاعدة» بنيويورك ، فهم قوم يستهينون بالحياة ، حياة الغير وحياتهم ، فى سبيل الانتقام .

وهنا تختلط الأوراق ، وتتداخل الصور عند لويس ، ويبدو كمن أصيب بعمى الألوان ، فالعثمانيون ليسوا هم المسلمون وحدهم ، ولا يمثلون منهم إلا قطاعاً محدوداً ، وصراعهم مع إمبراطورية النمسا كان سياسياً إقليمياً لا شأن للإسلام به ، ولا يوجد بين المسلمين (الذين يقدر عددهم الآن بنحو المليار وربع المليار مسلم) من يتذكر العثمانيين إلا نفر قليل . ولا يوجد بينهم من يتذكر حكاية «ثأر ڤيينا» الغريبة التى يسوقها لويس لقرائه ، أما تقدم الغرب فله عوامله الموضوعية المرتبطة بالنمو الرأسمالى والتوسع الخارجى ، وكانت بلاد المسلمين هدفاً لذلك التوسع ، وكان ذلك التوسع من أبرز عوامل إجهاض محاولات التنمية المستقلة مثل تلك التى شهدتها مصر فى عهد محمد على ، وغيرها من المحاولات التى قامت فى النصف الأول من القرن العشرين . ولكن تناول لويس لمسألة تقدم الغرب وتخلف المسلمين تبدو للقارئ ، فى ضوء تشخيص لويس للإسلام والمسلمين ، وكأن مردها إلى قصور عند المسلمين يرجع إلى دينهم وثقافتهم ، وأن مفتاح التقدم هو طرح ذلك كله ، واعتناق الثقافة الغربية ، عندئذ يتذوقون طعم «التقدم» ! .

وفى الفصل الخاص «بالمعايير المزدوجة» يمضى لويس فى ترسيخ فكرة كراهية المسلمين للغرب ، فهم يصرون على التمسك بهويتهم الإسلامية ، من خلال تكوين منظمة دولية خاصة بهم هى «منظمة المؤتمر الإسلامى» التى تضم فى عضويتها الدول الإسلامية ، وهم رغم ذلك عجزة لا وزن لهم ، ولم يستطيعوا اتخاذ قرارات تخدم مصالحهم الإقليمية ، لأنهم لا يعيشون فى إقليم واحد ، وكل ما استطاعوا عمله تقديم بعض المعونات للأقليات الإسلامية فى أوروبا وأفريقيا . ولا يوضح لويس لقارئه أن تكوين تلك المنظمة تقرر فى المؤتمر الإسلامى للقمة الذى عقد بالرباط (سبتمبر ١٩٦٩) للنظر فيما ترتب على إضرام الحريق بالمسجد الأقصى على يد الصهاينة ، فكان تكوين تلك المنظمة عندئذ للدفاع عن المقدسات الإسلامية والحفاظ عليها ، واستخدمتها الولايات المتحدة (من خلال الدول الإسلامية التى تدور فى فلكها) فى الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتى . ولعبت تلك الدول دوراً مهماً فى تمييع الهدف الذى أُقيمت المنظمة من أجله ، وتحويلها إلى أداة للتضامن الشكلى بين مجموعة من الدول تتباين مصالحها الوطنية تبايناً واضحاً .

كذلك يتضمن الفصل ذلك الميل الغريب عند المسلمين للارتماء فى أحضان كل من يعادى الغرب نكاية فيه ، فقد صادقوا النازية ، وتعاونوا مع هتلر على نحو ما فعل الحاج أمين الحسينى فى فلسطين ، ورشيد عالى الكيلانى فى العراق ، رغم أن ألمانيا النازية هى المسئولة عن اضطهاد اليهود ودفعهم إلى الهجرة إلى فلسطين ، بينما كانت بريطانيا تمنع تلك الهجرة . ثم صادق العرب الاتحاد السوفيتى ، رغم أنه كان صاحب المبادرة فى الاعتراف بدولة إسرائيل عام ١٩٤٨ ، وفى مدها بالسلاح عن طريق تشيكوسلوڤاكيا .

وهنا نجد طفحاً من المغالطات ، فهو يعلم أن بريطانيا هى الدولة العظمى التى وعدت اليهود بإقامة وطن قومى فى فلسطين وضمنت صك الانتداب على فلسطين التزامها بتنفيذ ذلك الوعد (وعد بلفور الشهير) ، وأقامت النظام الإدارى فى حكومة الانتداب بما يكفل إرساء قواعد مؤسسات الدولة اليهودية المقبلة ، ونظمت الهجرة اليهودية العلنية إلى فلسطين ، وتغاضت عن الهجرة غير الرسمية التى اقتربت من أعداد الهجرة العلنية ، ودربت عصابات الميليشيا الصهيونية على فنون القتال فى الحرب العالمية الثانية . فلا عجب إذا كان الحاج أمين الحسينى قد سعى لكسب تأييد الطرف الآخر فى الحرب العالمية للقضية الفلسطينية ، فهو ما كانت تفعله الصهيونية سراً أيضاً ، ولا عجب إذا حاول العراق الاستفادة من ظروف الحرب للتخلص من الهيمنة البريطانية ، وهى محاولة باءت بالفشل .

أما عن العلاقات مع السوفيت ، فلويس يعلم جيداً أن الحظر الذى فرضه الغرب على توريد السلاح للدول العربية ، وربطه لتقديم المعونات الاقتصادية بالدخول فى نظام الدفاع عن الشرق الأوسط ، وعدم تشجيعه لمشروعات التنمية الاقتصادية فى البلاد العربية ، كل ذلك جعل مصر تسعى لكسر احتكار السلاح بالاتجاه نحو عقد صفقة الأسلحة الشهيرة ، ومواجهة قرار الغرب سحب عرض تمويل السد العالى بتأميم قناة السويس ، والاتجاه نحو الاتحاد السوفيتى للمعاونة فى مشروعات التنمية . ولم يفرض الاتحاد السوفيتى على العرب التحالف معه ضد الغرب ، ولم يتدخل فى تحديد مشروعات تنموية بعينها أو يملى شروطاً كتلك التى كان يمليها الغرب . لذلك وجدت مصر فى الاتحاد السوفيتى مصدراً مهماً للخبرة التكنولوجية والمعونة الفنية اللازمة لمشروعات التنمية ، وحذت حذوها بعض البلاد العربية الأخرى .

أما عن سرّ كراهية العرب لأمريكا والغرب ، فلابد أن برنارد لويس يدركه جيداً ، فهو يعود إلى الانحياز الأمريكى للصهيونية ، وخاصة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، عندما نقلت الصهيونية العالمية مركز نشاطها إلى أمريكا باعتبارها القوة الكبرى الصاعدة فى عالم ما بعد الحرب . ولعبت الولايات المتحدة دوراً فعالاً فى حشد الأصوات لدعم قرار تقسيم فلسطين (نوفمبر ١٩٤٧) ، وأسرع الرئيس ترومان بإعلان اعتراف الولايات المتحدة بإسرائيل بعد دقائق من إعلان قيامها فى ١٥ مايو ١٩٤٨ .

هذا الانحياز الأمريكى للصهيونية ، أصبح انحيازاً لإسرائيل على طول الخط ، استخدمت فيه الولايات المتحدة حق الڤيتو فى مجلس الأمن ٣٨ مرة (حتى مارس ٢٠٠٤) لإجهاض قرارات كان المجلس يعتزم إصدارها لردع إسرائيل ، فى مواجهة عدوانها الدائم على الشعب الفلسطينى وجيرانها العرب .

هذا الانحياز قال فيه باحث أمريكى – هو إيڤان ولسون – فى دراسة نشرها بمجلة الجمعية الأمريكية للعلوم السياسية (عدد مايو ١٩٧٢) بعنوان «الاهتمام الأمريكى بالقضية الفلسطينية وإقامة دولة إسرائيل» جاء فيها :

«إن سجل سياستنا تجاه فلسطين سجل مؤسف ، لأن التخبط فى تلك السياسة أحبط أصدقاءنا ، وأدى إلى الصدام بين الأطراف المعنية ، وقد فشلنا فى تسوية

المشكلة أو منع الاقتتال الذى ينشب من حين لآخر .

ولاشك أن تأييدنا لقيام الدولة اليهودية على حساب أغلبية الشعب العربى فى فلسطين ، كان خطأ جسيماً له نتائجه المدمرة بالنسبة لعلاقاتنا بالعرب ومصالحنا بالمنطقة ، فقد ربطنا أنفسنا – فى أذهان العرب – بالعناصر الإمبريالية الاستعمارية التى ناضلوا ضدها منذ الحرب العالمية الأولى ، وأوقعنا تحيزنا لإسرائيل ودعمها بالمعونات فى تناقض كبير بين ما نقول وما نفعل ، وبذلك لا يمكننا إقناع العرب بأننا نقف من الصراع موقفاً متوازناً» .

هذا ما كتبه إيڤان ولسون عام ١٩٧٢ ، تُرى ... ماذا يمكن أن يقول اليوم بعد أن قطعت الولايات المتحدة شوطاً بعيداً فى تحدى الأمانى القومية المشروعة للعرب ، وفى تأييد إرهاب دولة إسرائيل ، ومساعدتها على الإفلات بما ارتكبته من جرائم الحرب فى حق الشعب الفلسطينى ؟ أليس هذا الموقف يشكل انحيازاً أعمى ضد المصالح الأمريكية الإستراتيجية فى الشرق الأوسط ، فى عالم تتلاحق فيه التغيرات ، ولا يدرى أحد ما قد يأتى به الغد ؟

يضاف إلى الانحياز الأمريكى للصهيونية وإسرائيل ، سياسة الهيمنة الإقليمية التى تمارسها الولايات المتحدة منذ الخمسينيات من القرن العشرين ، والتى بلغت ذروتها الآن باجتياح العراق والسعى لفرض نظام إقليمى جديد يحول الدول العربية إلى قوى هامشية ثانوية ، ويربطها بحلف الأطلنطى . ومن عجب أن ينعى علينا برنارد لويس – بعد ذلك كله – كراهيتنا للغرب وأمريكا !

يبقى حجر الزاوية فى موضوع الكتاب الذى من أجله نشره لويس ، والذى أوقف حياته كلها على خدمته ونعنى به «إسرائيل» التى يلومنا على كراهيتها رغم أنها «واحة الديمقراطية» فى الإقليم حتى إن أحد تلاميذه بالأردن ذكر له أن الشباب الأردنى يسعى لتعلم العبرية حتى يفهم الحوار «الديمقراطى» الذى يشاهده فى برامج التليفزيون الإسرائيلى ، وخاصة أن الديمقراطية لا وجود لها فى العالم العربى .

وعندما يرد ذكر القدس عنده ، يعتبر بناء المسجد الأقصى عام ٦٩١ تحدياً لليهود والمسيحيين لأنه بنى فى موقع هيكل سليمان ، ويرى أن القدس لم يكن لها أهمية عند المسلمين بدليل تنازل أحد سلاطين الأيوبيين عنها للإمبراطور فردريك الثانى عام ١٢٢٩ كجزء من تسوية سياسية . ويشير عرضاً إلى استرداد المسلمين لها بعد ذلك ولكنهم عادوا إلى الاهتمام بها اهتماماً غامضاً فى القرن التاسع عشر .

كما يذكر أن إسرائيل دخلت فى عملية سلام مع العرب بعد حرب تحرير الكويت ١٩٩١ ، ولكن (الأصوليين) عزّ عليهم أن يأتى إنقاذ منظمة التحرير الفلسطينية على يد أمريكا واعتبروه أمراً مهيناً . وتعد قضية فلسطين هى المسألة المسموح فيها بالشكوى فى العالم العربى ، وليس المسائل الاقتصادية والاجتماعية الملحة فى تلك البلاد التى يتم فيها قمع الرأى المعارض ، ويرتبط بذلك الشكوى من السياسة الأمريكية لدعمها للحكام المستبدين فى المنطقة .

وهكذا يموه برنارد لويس الأمور على قارئه الذى تصب أجهزة الإعلام فى ذهنه أن فلسطين كانت دائماً وطن اليهود السليب ، وأن سكانها من العرب قبائل ورحّل وفدوا إليها مع المد الإسلامى ، وعاش اليهود تحت رحمتهم أذلاء ، وأن تلك الأرض (التى بلا شعب) أولى بها اليهود الذين يمثلون (شعباً بلا أرض) . وبذلك يبرر للقارئ كل ممارسات إسرائيل ضد العرب (المتعصبين الذين لا يقبلون التعايش مع الآخر) . وتأتى مقولة «واحة الديمقراطية» لتكمل جوانب الصورة البراقة لإسرائيل ، ولتخفى ما يعانيه المجتمع الإسرائيلى من مشاكل عرقية ومذهبية وأيديولوجية لم تنجح دعوة (التوحد فى مواجهة الخطر الخارجى) فى تغطيتها .

ولا يشير لويس – طبعاً – إلى عمليات الإبادة التى يتعرض لها الشعب الفلسطينى وهدم البيوت واقتلاع المزروعات ، ونكث كل ما قُطع من عهود ، والإعداد لترحيل الفلسطينيين عن ديارهم .

تُرى .. من ينفى الآخر ويسعى لطمس هويّته ، أهم العرب الذين أفسدهم الإسلام ، أم اليهود ؟!

أما عن القدس ، فرغم الجهود المتواصلة لرجال الآثار اليهود فى التنقيب حول وتحت المسجد الأقصى ، طوال ثلاثة عقود منذ وقوع المدينة تحت الاحتلال ، لم يستطيعوا تقديم أدلة أثرية على صلة موقع المسجد بهيكل سليمان .

أما عن تنازل أحد سلاطين الأيوبيين عن القدس بعد أن استردها صلاح الدين الأيوبى ، فيرجع إلى سوء سياسة ذلك السلطان ، ولا يعنى عدم الاهتمام بالقدس ، وإلا لما سعى المسلمون لاستردادها . وكانت زيادة الاهتمام بها فى القرن التاسع عشر مصاحبة لظهور الحركة الصهيونية وبداية هجرة اليهود إلى فلسطين .

وغنى عن البيان أن برنارد لويس يريد أن يدخل فى روع قارئه الغربى أن الوجود الإسلامى فى القدس وجود غير مشروع ، فيه افتئات على المسيحيين واليهود ، وأنهم مغتصبون لموقع المسجد الأقصى ، واهتمامهم بالقدس اهتمام طارئ ، ومن ثم يصبح تمسك الفلسطينيين بالقدس مجرد نكتة سخيفة ، وتعد على حق اليهود (التاريخى) فى المدينة .

ولا يشير لويس – من قريب أو بعيد – إلى وجود مسيحيين عرب . ولا يريد لقارئه أن يشعر بوجودهم ، ويتعرف على دورهم فى ظل الإسلام ، ويحدد موقفهم – مثلاً – من الغزو الصليبى للمشرق العربى ، حيث وقفوا إلى جانب إخوانهم المسلمين ضد «الفرنجة» الغزاة ، لأنه لو فعل ذلك لهدم الإطار النظرى لهذا الكتاب وغيره من الكتب .

إننا لا ننكر أن الإسلام يعانى أزمة ، ولكن نظرتنا «لأزمة الإسلام» وتشخيصنا لها يختلف تماماً عن «أزمة الإسلام» كما يراها لويس ، فالإسلام فى حاجة إلى فقه جديد يصوغ أحكاماً تتّفق مع ظروف العصر ويلبى حاجات المجتمع . كما يحتاج المسلمون إلى مشروع نهضوى يحقق التنمية بمختلف أبعادها فى إطار تضامنى تكافلى ، قاعدته المصلحة الوطنية ، وامتداده المصالح المشتركة التى تجمع البلاد الإسلامية بعضها البعض ، فى عالم تتجه فيه الدول إلى التكتّل حتى تخفف من آثار «العولمة» .

إن كتاب لويس لا يعبر عن «أزمة الإسلام» ولكنه يعبر عن «أزمة الضمير» عند برنارد لويس وبطانته من الصهاينة الذين يتحكمون فى حقل دراسات الشرق الأوسط فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويوجهون صناع السياسات الاستعمارية الجديدة للهيمنة على الوطن العربى ، لذلك يجب علينا أن نتبنى مشروعاً ثقافياً إعلامياً لمواجهة هذا الخطر الذى يهدد بلادنا فى الحاضر والمستقبل .